الشجاعة الأدبية

ربما لم يكن هناك رجل فرد أظهر الأدب الجاهلي شجاعته في الحرب مثل عنترة. وقد كان هذا الفارس شجاعاً في ميدان الحرب، كما كان جسوراً في مضمار الحب. ولم يكن يخشى على جسارته وشجاعته ومكانته من القيل والقال، أو نقد المرجفين. ولم يكن يلهيه عن عمله في الحرب، أو إنجازاته في الحب ما يقوله الفوارس الآخرون، أو العذال المتربصون؛ بل كان واثقاً من نفسه لم يشعر بعقدة الضعف أمام المرأة، تلك العقدة التي كثيراً ما تمنع أمثاله من الأبطال، وقادة الرجال عن التصريح بحبهم، وبضعفهم أمام المرأة، وأمام حبهم لها. لذلك فقد كان عنترة يبوح باسم حبيبته وابنة عمه عبلة في كل آونة يزداد فيها لهيب حرقته لرؤياها، والاجتماع بها.

قلَّ الرجال الذين يشبهون عنترة لا في الحرب فحسب، ولكن في الحب أيضاً. فالرجل كما نعرف ولا

أعني بذلك عنترة كثير العقد النفسية، خاصة فيما يدفعه منها إلى حب المرأة، والاستكانة أمامها. والرجل ينجرف وراء الحب، وينعطف عليه، ولكنه يخشى أن يقول الناس إنه غارق في الحب إلى أذنيه. إنه يستطيع أن يحمل نفسه إلى التهلكة في ميدان الحرب، ولكنه يجبن عن الاستبسال حساً ومعنى في ميدان الحب، لا يخشى الأبطال، ولكنه لا يقدر على أن يبوح بما أصابه من حب. هو شجاع حيث لا تنفع الشجاعة، وحيث يجب أن يكون أريباً ذا فهم وعقل ورأي. ولكنه عندما يجب عليه أن يقيد نفسه في هوى المرأة التي ذهبت بعقله يرتد خائباً خائفاً. ويدعي الصمود، ويتدثر بالرّويّة، وصلابة الموقف، فيزداد بلادة في الذهن والحس.

الرجل يبحث عن مثله العليا في المسائل المادية كالشراسة في القتال، أو الثراء في المال، ولكنه يجبن عن أن يبحث عنها، أو أن يجدّ وراءها في عالم المرأة: ذلك العالم الرقيق بمشاعره، الحادّ في حساسيته، المرهق في تتبعه. إن ساعات الحرب قليلة محدودة، وساعات الحب طويلة ممدودة. عندما تنتهي المعركة يضع الرجل سيفه في قرابه، ويخلع حمائله من كتفه، ويمضي شامخاً إلى مسكنه، وقد داخله الغرور.

أما المحب فإن معركته في مضمار الحب لا تبدأ ببداية يومه، ولا تنتهي بنهاية شمسه. ولا يستطيع أن يخلعها عن كتفه كما خلع حمائل سيفه، بل إنها تدوم معه ليل نهار، إذا رقد وجدها تطل بعينيها في عينيه. وإن نام عن كونها أيقظته وقذفت به هنا وهناك، يقدم رجله إلى الأمام تارة، ويرجعها إلى الخلف تارة أخرى. فمعركة الحب ليس لها بداية بعد أن تبدأ، وليس لها نهاية إلا بعد أن تخمد الأنفاس.

وكان عنترة من البواسل القلائل الذين عرفوا مذاق الحرب والحب، فأفتى في الحرب كما أفتى في الحب. وسكب على آذان الفوارس من موسيقى السيوف ما حملها على الاستماتة في ذلك الخضم الحافل، وسكب في أذان عبلة من حلو الغناء ما جعل قلبها وقلوب وصيفاتها تشعر بأن هناك رجلاً لا مثيل له، وبطلاً لا ندّ له. وكان هذا هو البطل الشجاع الذي ترى فيه المرأة المثل الأعلى الذي تزهى به، وترضى به، لأنه سيرعاها في كل حين على مدى ساعات الليل والنهار.

أما ذلك الذي يجبن عن الإفصاح بما في مشاعره من حب ووجد لأن ذلك من علامات الخور، فهو شخص لا خير فيه، ضعيف كالقشة، نذل كالجبان. المرأة تحب الرجل الشجاع في الكلم والرأي، قبل

السيف والرمح. فالشجاعة الأدبية هي المحك بين الشجاعة والتهور، أو هكذا يرى الكاتب والأمر متروك للمرأة.

وحب عنترة مليء بمشاعر الحب الذي ينتصر في الحرب من أجل هذا الشعور السامي. وهذا ما يجعلنا نحب عنترة وشعره لأنه يحدثنا ـ نحن الرجال ـ عما نريد أن نملكه، ونتحلى به. ولكن يعجزنا ذلك لأننا نكتم ما يحسن أن نفصح به، وبذلك نخذل أنفسنا، ونخذل أحباءنا. فهو لساننا الناطق بما نشعر به حين يتملكنا الجبن الذي نسميه ـ دون وجه حق ـ حياء.

أما عنترة فإنه لا يخذل أحداً، فالمرأة لها الكلام الحلو الذي يصدر من قلبه، والنداءات اللذيذة التي تسكر آذانها. أما الحرب فلها الضرب الموجع الذي ينطلق من سيفه، والمستمع يرى ويسمع كل هذا وذاك، فيلتذ به، ويحلم بواقعه، وقد رضي به حسًّا ومعنى.

لقد شغف عنترة بنداء عبلة في كل زمان ومكان. وكان يذوق طعم اسمها كلما نطق به، فأكثر من ترداد اسمها في شعره. فهو تارة يناديها:

يا عبلُ، دونَك كل حيٍّ فاسألي

إنْ كان عندك شبهة في عنتر

يا عبل هل بُلّغت يوماً أنني
ولّيت منهزماً هزيمة منكر
كم فارسٍ غادرت يأكل لحمه
ضاري الذئاب وكاسرات الأنسر

وكان حب عبلة هو الذي يقوده إلى ملاقاة الفرسان، وكان يعترف بذلك وهو جذلان فرح بما ذهب إليه من قتال بسبب حبه لعبلة. ونراه يعلن صارخاً:

يا عبل لولا أن أراك بناظري
ما كنت ألقى كل صعب منكر
يا عبل كم من غمرة باشرتها
بمثقف صلب القوائم أسمر
فأتيتها والشمس في كبد السما
والقوم بين مقدم ومؤخّر
من لم يعش متعززاً بسنانه
سيموت موت الذل بين المعشر

وأدرك عنترة بأن عبلة سيصيبها الخوف عليه وهو يخوض هذه المعارك، ويكاد يفني نفسه فيها، ورأى أنه لا بد له من أن يطمئنها بأنه لن يصاب بأذى، وسره أن تخاف عليه، وشعر بأن هناك من

يهواه، فيرسل كلماته التالية ليطمئنها حتى لا تجزع:

يا عبل لا تخشيْ عليَّ من العدا
يوماً إذا اجتمعت عليّ جموعها
إن المنية يا عبيلة دوحة
وأنا ورمحي أصلها وفروعها

لم تكن تنتابه هواجس العقد النفسية فيمتنع عن الكلام عن حبه لأن ذلك يظهره بمظهر الضعيف، بل كان واثقاً من نفسه ومن أحاديثه، ومن أنها هي التي يجب أن يقولها كإنسان، ويعلنها كبطل، لا أن يَتَدَثَّر بدثار الرجولة المنطوي على الضعف النفسي، والخوف مما سيوصف به، وما يمكن أن يقوله الآخرون.

ما من مرة تحدث فيها عنترة عن مقارعة الأبطال والفوارس إلا تذكر عبلة وحبه الطاغي لها. لقد أحبها حباً تصور له في كل مكان حتى بين صراعه مع الفوارس. ولعلنا ما زلنا نذكر قوله:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي

أما الرجل الذي لا يبوح لحبيبته بحبه، فإنه في رأي بعض الناس ضعيف الشخصية، قليل المروءة.

إن الرجال على كثرتهم وقوتهم يشعرون بكثير من مركب النقص أمام المرأة التي يحبونها. فهم كثيرو التشكك في صلاحيتهم لنيل حب تلك المرأة، غير واثقين من أنهم أهل لحبها، فتراهم في كل خلوة ومجلس، بل حتى إن كانوا على انفراد مع أنفسهم يسألون المرأة التي يحبونها إن كانت بالفعل تحبهم، أو يتساءلون مع أنفسهم إن كانت تحبهم بالفعل، فالرجل ـ على العموم ـ (إلا القلة القليلة) يتمتع بمركب نقص لا حدود له في هذا المجال. ومن هنا كانت أسباب ظهور معاملاته الخشنة مع حبيبته. إنه يتضاءل صغراً إذا أراد أن يبوح لها بحبه، ويزداد صغراً إن كان عليه أن يعتذر لها عن شيء أوجب اعتذاره. أما عنترة فهو فارس الحب والحرب. يرى في حبيبته ما لا يراه أحد آخر في محبوبته.

وهو يعترف صراحة بحبه لها، وبتقديره لمفاتنها من ابتسامات عذبة، أو جمال فتان. ولا يرى في تذلّله لها أية غضاضة طالما كان ذلك التذلل لها، وليس لأعدائه. وكان كثيراً ما يقارن بين معاملته لعبلة، ومعاملته لأعدائه ومحاربيه. فهو يقول لها:

أثني عليَّ بما علمت فإنني
سمحٌ مخالطتي إذا لم أُظلَم

فإذا ظُلمت فإن ظلمي باسلٌ

مرٌّ مذاقته كطعم العلقم

فهذا هو عنترة يقبل من محبوبته وزوجته عبلة الكثير. ولكن هذه الحبيبة تعرف أخلاقه ولذلك فإنها تعامله بكثير من التقدير، وتشمله بكثير من الحب. إنهما عاشقان يتدبران أمورهما، ويرعيان حبهما، ويعرفان أسرار بعضهما بعضاً. ولا يعصي المحب أمراً لمحبوبته.

أما إذا حاقه ظلم من غيرها فإنه بطبيعة الحال لن يقبل ذلك، ولن يرضى به، بل سيقاومه بكل شراسة، ويقطع الأمر من دابره لأن مذاق ذلك الظلم والذل مرّ كالعلقم. ومن حسن الحظ فإن عبلة تعرف ذلك ولا ترضى أن يمس حبيبها بأية كلمة فيها إهانة له. ومن هذه الأحاديث، وهذه الأبيات ما يكاد يؤكد لنا أن بعض أعداء عنترة لم يزلْ على ما يبدو ينقصونه في بعض مجالسهم الخاصة، وأحياناً العامة، وما ذلك إلا لعجزهم عن القيام بأعمال الفروسية التي كان يقوم بها.

وكان من بين هؤلاء الشانئين عمرو الذي امتلأ قلبه حقداً على عنترة. وكان يشعر بأنه غير صنو له في

الشجاعة والفروسية، وكما يقول بعض رواة قصته، فإن عَمْراً هذا كان شقيق عبلة، ولذلك فقد كان بمأمن - بعض الشيء - من سيف عنترة ومن غضبته. وكان عنترة في مأزق لا يعرف كيف يتصرف معه، لأنه كان يخشى أن يغضب - أو على الأصح - أن يُحزن ابنة عمه عبلة. وربما كان خير من وصف هذا الموقف من شعراء الجاهلية، فيلسوفهم زهير بن أبي سُلمى حين قال:

وظلمُ ذوي القربى أشد مضاضةً

على المرء من وقع الحسام المصمّم

فهذا عنترة بالرغم من دفاعه عن الحريم، والمحافظة على أموال بني عبس إلا أن ابن عمه (عمرو) ظل ينفس عليه مكانته، ولا يعترف بقرابته. ولما كان العرب يعتقدون بأن الفضل ما شهدت به الأعداء، فقد لجأ عنترة إلى مخاطبة عبلة على هذا الأساس. وأخذ يشهد ألد أعدائه على جميل فعاله. ويبدو لنا أنه كانت تجري مناقشات كثيرة بين عنترة وعبلة محورها ذلك الأخ الذي لا يطيق صهره، ويضيق صدراً به، ويلجأ عنترة إلى عبلة، وهو يحدثها حديثاً فيه الحب وفيه المرارة، ويهمس في أذنيها:

سلي يا عبلُ عمراً عن فعالي
بأعداك الأبي طلبوا قتالي
سليه كيف كان لهم جوابي
إذا ما قال ظنك في مقالي
أتونا في الظلام على جياد
مضمرة الخواصر كالسّعالي
ولما أوقدوا نار المنايا
بأطراف المثقفة العوالي
طفاها أسود من آل عبس
بأبيض صارم حسن الصقال
إذا ما سُل سال دماً نجيعا
ويخرق حده صم الجبال
ملأت الأرض خوفاً من حسامي
فبات الناس في قيل وقال
ولو أخلفت وعدي فيك قالت
بنو الأنذال إني عنك سالي

فكما كان عنترة غاية في رباطة الجأش في الحرب، كان في منتهى الشجاعة الأدبية في الحب. وهو محب لا يمل مناداة حبيبته في كل مرة وفي

كل حين. ونراه لا يسكت عن ندائها باسمها في الكثير من المناسبات لأنه يذوق حلاوة حين ينطق باسمها.

obeikandl.com